وَصْف بَغدَادَ وتُراثِها
نُصوصٌ مُختارَةٌ وأشعارٌ مُنتَخَبةٌ
من مَصَادِر التّرَاث الجُغرَافيّ العَرَبيّ الإسلَامِيّ

الأستاذ المتمرس
د. مُحَمَّد كريم إبراهيم الشّمريّ - جامعة بابل/ العراق

المُلخَّص:

حَظِيَت مَدينَةُ بَغدَادَ بِمكانَةٍ ومَنزلةٍ مَرموقَةٍ في مَصَادِرِ التّاريخ والتُّرَاثِ العَرَبيّ- الإسـلَامِيّ المُختَلِفة؛ لأنَّهَا مَركزُ (عاصمة) الخِلَافَة العَبَّاسيّة، منذ شرَعَ الخليفة أبو جَعفَرٍ المَنصُور ببنائِها عام ١٤٥هـ/٧٦٢م، واكتمـلَ بناؤهـا عام ١٤٩هـ/ ٧٦٦م، فأصبحتْ مَركزَ العالمِ العَرَبيّ - الإسـلَامِيّ حتى سـقوطها على يد المغول، بقيادةِ هولاكو عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

اعتمَدنا لإنجازِ بحثِنا على معلوماتٍ مُسـتقاةٍ من خِيرة الجُغرَافيّينَ العَرب والمُسـلِمينَ، اتّسـمتْ بالدّقةِ والأصالـةِ، وتَميّزت بأهميتِهـا؛ نظرًا لانفرادِها بمعلوماتٍ رائِدةٍ ونادرة عن مَدينَـة بَغدَادَ؛ لأنَّ أغلبَهم كانوا شُهودَ عَيانٍ مُعاصِرين، لَّما كتبوا ووَثَّقوا مُشاهداتِهم وسماعَهم ورواياتِهم، ووصفَهم لَمدينَة بَغدَادَ موضّحين أهمّيتَها ومكانتَها، وأبرزَ معالِمِها في مَحلّاتِها وأسواقِها ودورِها ودروبِها...، منذُ القَرنَ الثّالث حتّى النّصف الأول من القَرن السّابع الهجريّينِ/ التّاسع حتى الثَّالثَ عشرَ المِيلَاديّينِ، أي: زهاءَ خمسةِ قرونٍ، من تاريخِ مَدينَة بَغدَادَ وتُراثِها الخالد.

الكلماتُ المفتاحيّة: بَغدَاد، مَدينَة السّلام، دار السّلام، دجلة، الزّوراء، الكرخ.

المقدِّمةُ:

مُنـذُ اكتمال بنـاء مَدينَة بَغـدَادَ كانَت أعمال الصّيانـة والإضافَـة والتَجديد والتغيير مسـتمرة وقائمة عليها، فَألفَ جَمعٌ مـن العُلَمَاء والمُؤرخين مُؤلفاتٍ مُخصَصةً عَنها، لا يتّسِـع المجالُ لذكرها في هذا المقام، بل سـنكتفي بإيرادِ نُصوصٍ مُرَكّزَة عـن بَغدَادَ من مَصَادِرِ الـتّرَاثِ الجُغرَافيّ العَرَبيّ- الإسلَامِيّ وكتابات الرّحَّالة المُسلِمينَ ووَصفِهم لها، فَضلًا عن الاستشهاد بباقاتٍ وَردِيةٍ من المقطوعات الشّعرية الرّائعة، التي نُظِمَت في: وَصفِها ومدحها، وبيـان أَهميتها ومكانتهـا ومنزلتهـا، ومميزاتها ومواصفاتها الفريدة؛ تأكِيدًا لأهمية وَدَور العراق عُمومًـا ومَدينَة بَغدَادَ خُصوصًا، في سِـجِل تاريخ وتراث الحضارة العَرَبيّة - الإسلَامِيّة الخالِد.

اخترنـا بحثنـا عـن بَغـدَاد مـن المَصَـادِر الجُغرَافيّـة العَرَبيّـة الإسـلَامِيّة، بانتقاءِ نصوصٍ وروايـاتٍ متنوعةٍ عنها مـن دُرَرِ الـكلامِ العَرَبيّ المأثـور، بلُغتِنـا العَرَبيّـة الأصيلـةِ؛ لغـةِ القرآنِ الكريمِ التي كَرَّمها اللهُ سـبحانَه وتَعالَى، وجعلَها خالـدةً باقيةً أبدَ الدّهرِ، وهذا مـن دلائِلِ عَظَمتِها، أنَّهَا لُغتُنا وهويتُنا، وجسرُنـا إلى الحضاراتِ، لغةُ الجَمـالِ والإبـداعِ التي تَربِطُ ماضينـا بحاضِرنا؛ هي تـاجُ الثّقافةِ وجوهرُ الهويّـة، ودرعُنا الثّقافيّ والفكريّ، مِمَّا يستدعي منا جميعًا الحفاظ عليها والفخر بها دائِمًا.

- المبحث الأول -

بَغـدَاد في نُصـوص ورِوايـات المَصَـادِر الجُغرَافيّة

(١)

أوضـحَ اليَعقوبـيُّ[١] الأسـبابَ التـي حملتـهُ على أن يبـدأَ كِتابهِ بذَكْـرِ العِراق وبَغـدَاد، قائِلًا: «وإنمـا ابتدأتُ بِالعِراق لأنَّهَا وَسَـطَ الدّنيا، وسُرّة الأرض، وذَكَرتُ بَغدَاد لأنَّهَا وَسطَ العِراق، والمَدينَة العُظمـى، التي ليسَ لها نَظِيرٌ في مَشـارِق الأرضِ ومَغارِبهـا سِـعَةً، وَكُـبرًا، وعِمـارَةً وكَثـرَةَ مِياهٍ، وصِحَةً وَهَواءً، ولأنهُ سَكنَها أصنافُ النّاس، وأهلُ الأمصار، والكُـور، وانتَقلَ إِليها من جَميع البُلدَان القاصِيـة والدانِية، وآثرَها جَميـعُ أهلُ الآفاق على أوطانهِـم، فَليسَ مِن أهلِ البَلـدِ إلاّ وَلَهم في مَحَلَةٍ، وَمَتجَـرٍ، وَمُتَصَرَفٍ، فَاجتَمعَ بها ما لَيسَ في مَدينَة في الدّنيا».

وَوصَـف اليعقوبيُّ[٢] حالَ بَغدَاد قبل اتخاذها عاصِمَةً لِلخِلَافَة العَبَّاسيّة، قائِلًا: «وَلَم تَكُن بَغدَادُ مَدينَـةً في الأيـامِ المُتَقدِمَـة، أَعنِـي أيَّـام الأكاسِرة والأعاجِـم، وإنَمـا كانَـتْ قَريَةً مِن قُرى طُسـوجِ بَادُورِيا. وذلـك أن مَدينَة الأكاسِرَة التي اختارُوها مِـن مُدن العِـراق: المَدائِـن، وهي من بَغـدَادَ على سَبعَةِ فَراسِـخَ وبِها إيوانُ كِسرى أنو شروانَ، ولم يكنْ ببَغـدَادَ إلَّا دِيـرٌ على موضِعِ مَصَـبّ الصّراة إلى دِجلـةَ الذي يُقالُ لهُ: قَـرْنُ الصّراة، وهو الدّير الذي يُسـمَّى: الدّيرَ العَتيق (القَديم)، قائِمٌ بِحالِهِ إلى هـذا الوقتِ[٣] نَزلهُ الجَاثِلِيـقُ رَئِيسُ النّصارَى

(١) البُلدَان ١١.
(٢) المصدَرُ نَفسُهُ، ص ١٥ - ١٦.
(٣) أي: عصر المؤَلِف اليَعقوبيّ في القَرنِ الثّالثِ الهِجريّ/ التّاسع الميلاديّ.

النّسطُورِيَة.

ولَم تَكُـن أيضًا بَغـدَادُ في أيامِ العَـربِ لَمّا جاءَ الإسلامُ؛ لأنَّ العَربَ اختَطَّتْ البَصرَة والكُوفة».

(٢)

تَحَدّثَ ابنُ رسـته[٤] عن مَدينَة السّلام، المُسمَّاة: بَغدَاذ، وهي اسـمُ مَوضِـعٍ كانَ مَوجودًا مـن قَبلُ، زَعموا أنّهُ كانَ مَوضِعًـا للأوثان والأصنام في الزّمن القَديـم، وهي أرضُ بابل، وبابل أقدم هذه المَواضِع كلها.

ولَّـا انتهَى مُلـكً بَني أمَيَّـة، نزلَ أبـو العَبَّاس السّـفاح في الأنبارِ، واتَّخَذَها عاصمةً له حتى نهايةِ خلافتِه، واسـتُخلِفَ بعدَهُ أبو جَعفَرٍ المَنصُور، الذي تَحَـوَّل الى بَغـدَادَ وبنـى مَدينَة السّـلام في الجانبِ الغَربيّ من نهرِ دجلةَ، الذي يَجري في وسطِها، وهي مَدينَـة حَصينَةٌ لها سُـوران، ولمَدينَة بَغـدَادَ أربعة أبوابٍ، على كُلّ بابٍ منها قُبّة خضراءُ، وهذه الأبوابُ، هي: بابُ خُراسانَ وبابُ البصرة وبابُ الكوفة وبابُ الشّـام، وكُلّ بابٍ عليه شـارعٌ كبيرٌ واسع، وعُقِدَت على الشّـوارعِ طيقانٌ بالجُصّ والآجرّ، وعلى السّور الخارجِ منها أربعةُ أسـوارِ حديدٍ، وفي وسط بَغدَادَ قصرٌ لأبي جَعفَرٍ يُسَمَّى: بابَ الذَّهب، وفيها مسجدٌ جامِـعٌ مَبنـيٌّ بالجُـصّ والآجرّ مرفوع بأسـاطين السّاج، ومُسَقَفٌ بخَشبِ السّاج المُزَوّق باللازوَرد.

(٣)

ووَصـفَ الإصطَخـريّ[٥] مَدينَة بَغـدَادَ، قائلًا: «وأما بَغـدَادُ فإنَّهـا مَدينَـة مُحْدَثَةٌ في الإسـلامِ لم تَكُنْ بها عِمـارَة، فَابتَنى المَنصُور المَدينَةَ في الجَانِبِ الغَربيّ وجَعـلَ حَوالَيها قطائِعَ لِحاشـيَتِه ومَواليهِ وأتباعـهِ، مِثل قَطيعَـة الرّبيع والحَربيَّـة وغَيرهما، ثمَ عَمُـرَتْ فِلما كانَ في أيامِ [مُحَمَّـد] المَهديّ جَعلَ مُعَسـكَرَه في الجانِبِ الشّرقيّ [الرُصافَة] فَسُـميَ: عَسكَرَ المَهديّ، ثم عَمُرَت بالناسِ والبُنيانِ، وانتَقلَتْ الخِلَافَة إلى الجانِب الشّرقيّ...».

(٤)

وخصّـصَ ابـنُ الفقيـهِ الهَمَذانـيّ[٦] كتابًا عن بَغدَادَ، بَدَأهُ بعنوان: (القولُ في مَدينَة السّلام بَغدَاد)، فقالَ عن اسمها ما نَصُّهُ: «قالَ بعضُ العُلَمَاء بَغدَادُ تُسَمى بَغدَاذَ وبَغدانَ وبَغدَارَ، قالوا وهي هي مَدينَةُ السّـلام أيضًا. فأمَّا الـزّوراءُ فهي مَدينَـة المَنصُور خاصَّةً وسُـمِيَت مَدينَة السّـلام، لأنَّ دجلةَ يُقال لهُ: وادي السّلام.

وَقـالَ موسى بـنُ عبدِ الحميـد النّسـائيّ: كُنتُ جالِسًـا عندَ عبـد العزيزِ بن أبي زيـاد، فأتاهُ رَجُلٌ فقـالَ: مِن أيـنَ أنت؟ قالَ: مِن بَغـدَاذَ، قال: لا تَقُلْ بَغـدَاذ فإنَّ بغ صَنـمٌ، وداذ: عَطاء، ولكن قُلْ مَدينَة السّلامِ، فإنَّ الله هو السّلام والمدائن كلها لهُ.

وقالوا: سُمِّيَت بَغدَاذ؛ لأنَّ كِسرى أُهدِيَ لهُ خَصيٌّ من المَشرِق فأقطعَه بَغدَاذَ، وكان لقومِ ذلك الخَصيّ صنَمٌ بالمَشرقِ يُقالُ له: البغ، فقال الخَصيُّ: بَغدَاذ.

ويقـال: إنَّ بَغـدَاذَ كانت سـوقًا يقصدُها تُجّار الصّـين بتجاراتِهم فيربَحون الرّبح الواسـع، وكان اسمُ ملك الصّين: بغ، فكانوا إذا انصَرفوا إلى بلادهم قالوا: بَغدَاذي، أي: ذلك الرّبح الذي رَبحناه أعطانَاه المَلِك، وداذ لفظة بالفارسِيّة وهو الإعطاء.

وهنا لابُدَ لنا من التّأكيـد أنَّ هذه الرّواياتِ التي ذكرناها، بخصوص تسميةِ بَغدَاد لا يمكنُ التّعويلُ عليهـا واعتمادُهـا عِلميّا؛ لأنَّهَا أقربُ الى الأسـاطيرِ

(٤) الأعلاق النفيسة، ص ١٠٠ – ١٠١.
(٥) مَسالِك الممالِك، ص ٨٣.
(٦) بَغدَاد مدينة السَّلام، ص ٢٧ – ٢٨.

والخُرافـاتِ، منهـا الى الحقائق العِلميّـة، فهيَ غَير مُوثقَة بسلسلةِ للرّواةِ وأسمائِهم، بل مجهولةُ السّنَدِ والتَّوثيقِ الدّقيق عمومًا، فضلًا عن أنَّهَا تبدأ بكلمات مُطلَقة غَير مُحَددَة، مثل: قـال، قالوا، يُقال...، مِمَّا يؤكِّد ضعفَها وعدمَ اعتمادِها.

وقـالَ قَومٌ: سُـميَتْ مَدينَة السّـلام.(أرادوا أنَّهَا مَدينَـةُ اللهِ، لأنَّ اللهَ هو السّـلامُ المُؤمن) وقد جَرى لها هذا الاسمُ على ضربِ الدّنانيرِ والدَّراهمِ وما تقعُ بـه الأشرِيةُ في الكُتـبِ ويَتبايعُ به النّـاسُ، وما يقعُ فيها من غلاتِ الطّساسـيجِ من الحنطةِ والشّـعيرِ، وما يُسـمى به القَفيزُ، فيقالُ: قفيزُ مَدينَةِ السّـلام، واسمُها الأولُ عندَ [الناس] الزّوراءُ، والزَّوراءُ مَدينَةُ أبـي جَعفَرٍ، والنَّـاس يُسَـمّونَها بَغـدَاذ، والخُلَفَاء يُسَمّونَها مَدينَة السّلام».

أمَّـا عـن تأسيسِـها، فقـد أوضـحَ ابـنُ الفقيهِ الهَمَذانـيّ[٧]، ذلك قائلًا: «ومَدينَـة بَغدَادَ بناها أبو جَعفَرٍ المَنصُورُ سـنةَ خمسٍ وأربعـينَ ومائة، وقَالَ عُبيدُ الله بنُ إسحاقَ: بَنى أبو جَعفَرٍ المَنصُور بَغدَادَ سـنةَ خمـسٍ وأربعينَ ومائة، وارتَفعَ بناؤُها سـنةَ تسـعٍ وأربعينَ، وقَالَ ابراهيمُ بـن الجُنَيد: قَطَنَ أبو جَعفَرٍ بَغدَادَ سنةَ تسعٍ وأربَعينَ ومائة، وكانَ بناها قبل سنةٍ أو اثنتين.

وكانـتْ قديمةً فَمَصَّرها، وأخـذَ في بِناءِ المَدينَة، فلمـا بَلَغَهُ خُروجُ مُحَمَّد وإبراهيمَ ابنَي عبدِ اللهِ بن الحَسَـنِ بنِ الحَسـنِ (عليهم السّـلام)، تَركَ البِناءَ، وعـادَ الى الكوفةِ، وَحَـوَّلَ بيوتَ الأمـوالِ والخزائنِ إليهـا، فلمـا انقَضى أمـرُ مُحَمَّـد وإبراهيـم، رَجِعَ فاسـتَتمَ بناءَها وبنى سُـورَها القَديم سـنةَ سـبع وأربَعين ومائة، وتُوفِيَ سنةَ ثمانٍ وخمسين ومئة.

وقـد كانَ المَنصُـور أمرَ ببناءِ قـصرٍ للمَهديّ [مُحَمَّـد ولَدِهِ]، وهـو المعروف بقـصرِ الوَضّاح في الشّرقيّة، فَبُنِيَ ونُسِـبَ الى الوَضّاح، والوَضّاح رَجُلٌ من أهلِ الأنبارِ تولّى النّفقةَ عليهِ فَنُسِبَ إلَيهِ.

وبنى المَنصُور مَسـجِدَي مَدينَةِ السّلام وبَنى القنطَرة الجَديدة على الصّراة، وابتاعَ مَدينَة السّلام مـن أربابِ القُرى ببادُريا وقُطرَبُّل ونهر بُوق ونهر بِينْ وأقطَعَهـا أهلَ بيتِهِ وقُوادَه وجُنـدَه وصَحابَتَه وكُتّابَه، وجَعلَ مُجَمَع الأسواقِ بالكَرخ، وأمرَ التّجّار فابتنوا الحوانيتَ وألزَمَهُم الغَلّة».

تَحَـدثَ ابـنُ الفقيـهِ الهَمَذانيُّ[٨] عـن مَدينَةِ بَغدَادَ ووَصفَها وصفًا رائعًا مُطَوَلًا، قائِلًا: «وَوَصفَ بعضُ الأدَباءِ بَغدَادَ فقال: هي سَـهليَّةٌ جَبليَّة. بَريَّةٌ بَحريَّة، صَيدُها غَزير، وخَيرُها كَثير، طَيبٌ هواؤها، أيـسرٌ فَناؤهـا، دائِـمٌ رَخاؤهـا، فضلُها على سـائِر البُلدَانِ كفضلِ ماءِ الأنهارِ على ماءِ البِحار.

هـي مَحلُّ الخُلَفَاء، ومسـكن الوُزَرَاء، ومأوى بني هاشـمٍ والأنبياء، ومقرُّهم ومفزعُهم في الشّدائدِ والرَخاء، الواسعَة الدّور، الكثيرة القصور، الغزيرة الأنهـار، المريـة العيـون، صحيحـة البِنـاء، رَحِبة الفَناء، نَزِهَـة الهَواء، رفيقة بالغُربـاء، مؤاتية لكل مَـنْ أتاها، مُغِيثةٌ لَمن اسـتغاثها، قد الصّحبة طيبة التّربة، مسـكنُ مَن تغنَّى، ومَعقلُ مَن تَنسَّك، بناها المَنصُور، وسكَنَها المهديُّ والهادي والأمينُ والمأمونُ، جنّـة من جنـانِ الدّنيا، دجلةُ في وسـطِها، والصِراةُ عـن يمينِها، ونهرُ المَلك أمامَها، ونهرُ عيسى مخترِقٌ لها، ونهـر كَرخايا يتخلّلُ طرقاتِهـا، ونهرُ الخَندقِ دائِرٌ بها... مكان الرّياسةِ، ومُقتَبسُ السّياسةِ، فهي جَنةٌ مُونِقة، وحديقةٌ مُشرِقة، وعروسٌ في مَحاسِدها

(٧) المصدرُ نَفسُهُ، ص٢٨.

(٨) المصدرُ نَفسُهُ، ص ١٥ - ١٦.

وكللها وحِجابها، شَهية المَنظَر، جميلة المَخبَر، صبيحةٌ مَليحة، ظاهِرةُ الوَسامة، دَمِثة التّراب، مُرَبعَة الجَناب، عَذِقَة الشّارِع، وَطِيَة المَضاجِع، تروقُ عُيونَ النّاظِرين، وَتُسِرُ قلوب المتأمّلينَ، ويَعيشُ في أفنِيَتها الفُقراءُ والمَساكين، مَطابِقُها وَثيقة، وسجونُها حَريزة، مع كَثرة أسواقِها واتساعِ أرباضِها، وفَساحَة رِحابها، وامتِدادِ طُرقِها وسِككِها، معشوقةٌ محبّبةٌ إلى الخُلَفاء، وولاةِ العهودِ والوُزَراء، دارُ مُلكِهم ومَعدنُ صَيدِهم ومُنتهى غايَة لَذّاتِهم، مُوَفِرَة لغلّاتِهم، مبارَكة علَيهم، شامِخَة البِناء، عَريضة الفَناء، فَيّاحَة السّطوح، نَزِهَة البساتين، كَثيرة الأشجار والرّياحين، مَفزَع كُلّ مَلهوف، ومعدَنُ كُلّ تاجِر معروف، وحَسبُكَ ببلدَةٍ قد جَمعَ اللهُ فيها ما فَرَّقَهُ في غيرِها من البُلدَان من أنواع التّجاراتِ وأصنافِ الصّناعاتِ، فهي سَلةُ الدّنيا وخِزانَةُ الأرضِ، مَعدَنُ العِلمِ ويَنبوع الحِكمَة... وأهلُها ظُرَفاءٌ فُضَلاءٌ، فيهم الجَمالُ، ولِباسُهم الكَمال.

يُمثِلُ هذا الوصف المُطَوّل الرّائع، صورَةً واضحةً شامِلةً تمامًا لِمَعالِم مَدينَة بَغدَادَ من حيثُ: صفاتُها وميزاتُها وطبيعتُها، وكُلّ مواصفاتِها وخصائصِها الفريدةِ الرائدة الجميلة، بعباراتٍ بليغةٍ عَذِبة رقيقة، تُمَثِلُ مَشهدًا جَميلًا رائِعًا أنيقًا صادِقًا، عن هذه المَدينَة العَرَبيّة العريقة، عِبرَ العُصور التّاريخية الخالدة.

(٥)

تَحدَثَ ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ في كتابٍ آخَرَ لهُ[٩] عن الخليفةِ أبي جَعفَرٍ المَنصُور وكِيفِيَة تَحَوُلْ عاصِمَتِه من هاشِميَّة الكُوفةِ إلى بَغدَادَ، قائِلًا: «فَلما استُخلِفَ المَنصُور نَزلَ المَدينَة الهاشِميَّة بالكُوفةِ، واستَتَمَّ بِناءَها وَزادَ فيها ثم تَحَوَّلَ منها إلى بَغدَاذَ فَبَنى مَدينَتَهُ ومَصَّرَ بَغدَاذَ وَسَماها: مَدينَةَ السّلام، وبَنى المَنصُورُ بِالكُوفَةِ الرّصافَة... « .

وفي مَوضِعٍ آخَرَ مِن كِتابِهِ[١٠] وَصَفَ ابنُ الفَقيهِ الهَمَذانيّ العِراقَ وعَجائِب بَغدَاد، قائِلًا: «ثُمَ العِراقُ وهوَ قَلبُ الأرضِ وَخِزانَةُ المَلِكِ الأعظم [الله]... ثم قُلْ في عَجائِبِ بَغدَادَ ما شِئتَ التي قد اجتَمَعَ فيها ما هوَ مُتَفرِقٌ في جَميعِ الأقاليم مِن أَنواعِ التّجاراتِ والصِّناعاتِ، وَلهُم الذي لا يَشرَكُهُم فيهِ أحَدٌ، الثّيابُ البِيضُ المَرْوِيَّة والزُّجاجُ المُحكَمُ من الأقداحِ والأقحافِ والكَاساتِ والطَّاساتِ والغَضائِر الحَجَرِيّة».

(٦)

أمَّا ابنُ حوقلَ[١١] فقد خَصّصَ فَصلًا في كتابِهِ عن إقليم العراقِ، واصِفًا إياهُ، قائِلًا: «هذا الإقليمُ أعظمُ أقاليمِ الأرضِ منزلةً، وأجَلُها صِفةً وأغزَرُها جِبايةً وأكثرُها دخلًا وأجمَلُها أهلًا وأكثرُها أموالًا وأحسَنُها مَحاسِن وأفخرُها صَنائِع، وأمَّا أهلُه فأوفرُهم عقولًا وأوسَعُهم حُلومًا وأفسَحُهم فِطنةً في سالِف الزّمان والأمم الخالِية، وبمثلِهِ تجري أمورَ أمَةِ الآخِرَة يُقِر بذلك لهم أهلُ الطّاعَة والفضائِل، ولا يَمتَري فيه أهل الدّراية والحصائِل».

وَتَحَدّثَ ابن حوقل[١٢] عن بَغدَاد، التي سَمّاها: مَدينَة السّلام، قائِلًا: «ومَدينَة السّلام مُحدَثَة [جَديدة] في الإسلام ابتناها أبو جَعفَرٍ المَنصُور في الجانبِ الغَربيّ من دجلةَ وجَعلَ حَوالِيها قَطائِعَ لِحاشِيتِهِ ومَواليهِ وأتباعِه، كقَطيعةِ الرّبيعِ والحربيّة

(٩)) مُختصرَ كتاب البُلدَان، ص ١٨٤.

(١٠) المصدرُ نَفسُهُ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

(١١) صورَة الأرض، القِسم الأول، ص ٢٣٤.

(١٢) المصدرُ نَفسُهُ، ص ٢٤٠ -٢٤٢.

وغيرهمـا، ثم عَمُـرَت وتَزايَدت فلمـا مَلَكها المَهدي جعلَ مُعسـكَرَه في الجانبِ الشّرقيّ، فسُمّي: عسكرَ المَهديّ وتزايـدَ بالنَاسِ والبنيانِ وكثـرتْ عمارتُهم وانتقلَ اسمُ الخِلَافَةِ إلى الجانبِ الشّرقيّ[١٣]...

ويُسـمّى الجانبُ الغَربـيّ: جانبَ الكـرخ، وبهِ مسـاجدُ للجمعةِ وصلاتُها خاصّة في أربعةِ مواضع منهـا، فمنها في الجانـبِ الغَربيّ الـذي بمَدينَةِ أبي جَعفَرٍ، وبالرصافةِ جامعٌ آخَرُ لأهلِ بابِ الطّاقِ وفي دارِ السّلطانِ أيضًا جامِعٌ يحضَرُهُ الخاصَّة والعامَّة، ومَسـجدُ بَراثا في الجانِبِ الغَربيّ، واسـتَحدَثَهُ أَميرُ المُؤْمِنـين عَليٌ صلـواتُ اللـهِ عليه، وتتّصـلُ عمارةُ الجانـبِ الشّرقـيّ في أسـفلِ دار الخِلَافَـةِ بِكُلواذَى وهي أيضًا مَدينَةٌ قَصِدَة فيها مَسـجِدٌ جامِع، ولولا عُدَّ في جُملة بَغدَاد لَجازَ لأنَّ كثيرًا من أهلها يُصَلُون فيه...».

وواصَـلَ ابـنُ حوقلَ حَديثـهِ عن بَغدَاد مُشـيرًا إلى وُجـودِ جِسرٍ بين الجانبَـين الغَربـيّ والشّرقيّ قربَ باب الطّاق، وكانـا جسرين لعبور المُجتازين، وتَعَطـلَ أحدُهما بسـببِ اختلال الأمـور، ووصف أكثرَ مَحالّ بَغدَادَ في عَصرهِ بأنَّها قد هَلكَتْ لاسـيّما في الجانـبِ الشّرقـيّ، في حين ذكـرَ أنَ أعْمـرَ بُقعَةٍ في بَغـدَاد في عصرِه، هي الكـرخُ؛ لأنَّ أهلَ الياسريّة ومعظـمَ مسـاكنِ التّجـار هناك، ونَقـلَ عن بعضِ المؤلفـينَ أنَ الخليفةَ المُوَفق أمرَ بِحسـابِ مسـاحةِ بَغدَاد في جانِبَيها بأرقامٍ ذَكرَها تفصيلًا.

(٧)

زَوَدنـا المقـدسيُّ[١٤] بِوَصـفٍ لَطيفٍ عـن إقليم العـراق وبِضمنهِ مَدينَـةُ بَغدَادَ، قائِـلًا: «هذا إقليمُ الظُرَفاء، وَمَنبَع العُلَمَاء، لَطيفُ الماءْ، عَجيبُ الهَواء، وَمُختـار الخُلَفَاء أخـرجَ أبا حَنيفَة فَقيـهْ الفُقهاء، وسُفيان سَيد القُراء، ومنها كانَ أبو عُبيدَة والفَرّاء، وأبو عَمرُو صاحِب المقراء، وحَمزة والكِسـائي وكُلّ فقيه ومقرئ وأديـب، وسَرِي وحَكيـمٍ وداهٍ وزاهدٍ ونَجيبٍ، وظريف ولبيـب. به مولد إبراهيم الخليل، وإليـه رَحِلَ كُلّ صَحابي جَليل، أليسـتْ بِهِ البصرةُ التـي قوبلتْ بالدُّنيـا، وبَغدَادُ المَدوحـةُ في الوَرى، والكوفةُ الجليلةُ وسـامرا، ونهرُه من الجنةِ بلا مرا، وتمورُ البصرةِ فلا تُنسى، ومفاخرُه كثيرةٌ لا تُحصَى، وبحـرُ الصّين يمسُّـهُ طرفُـه الأقـصى، والباديةُ إلى جانبِه كما تَرى، والفراتُ بقربِه من حيثُ جَرى...

وخَصَّ المقـدسيُّ[١٥] مَدينَة بَغدَادَ بوصفٍ جميلٍ وحديثٍ طويل، نقتطفُ منـهُ مأثورَ الكلام العَرَبيّ البليغ، بما نَصُّهُ: «مصرُ الإسلامِ، وبها مَدينَةُ السّلام، ولهـم الخَصائـصُ والظرافةُ، والقرائـحُ واللطافةُ، هـواءٌ رقيق، وعلـمٌ دقيق، كُلّ جيدٍ بها وكُلّ حَسَـنٍ فيهـا، وكُلّ حاذقٍ منها، وكُلّ ظـرف لها، وكُلّ قلب إليهـا، وكُلّ حربٍ عليها، وكُلّ ذبٍّ عنها، هي أشـهرُ من أنْ تُوصَفَ وأحسـنُ مـن أنْ تُنعَت وأعلى من أن تُمدَح. أحدثَها أبو العباس السّفاحُ ثم بنى المَنصُورُ بها مَدينَةَ السّـلام وزادَ فيها الخُلَفَاء من بعده. ولما أرادَ بناء مَدينَة السّـلام سـألَ عن شتائِها وصيفِها والأمطـارِ والبـقِّ والهواءِ، وأمَر رِجـالًا حتى يَناموا فيها فصولَ السّـنة حتـى عَرفوا ذلكَ ثم استشـارَ أهـلَ الـرّأي من أهلِهـا فقالوا: نـرى أن تنزلَ أربع طساسـيجَ، في الجانب الشّرقيّ بُـوق وكُلواذَى، وفي الغَربـيّ قُطْرَبُلُّ وَبادُورِيـا، فتكون بين نخلٍ وقربَ

(١٣) نَقـلًا عن: الاصطَخري. مسـالك الممالك، ص ٨٣، مع بعـض الاختلافات المحـدودة، للمقارَنـة تُنظَر: إحالة رقم (٥) وهامشها أعلاه.

(١٤) رِحلة المقدسي، المسَـماة: أحسَـن التّقاسيم في مَعرِفة الأقاليم، ص ١٢٢ – ١٢٣.

(١٥) المصدَرُ نَفسُهُ، ص ١٢٦ – ١٢٨.

ماء، فإن أجدَبَ طسـوج أو أخِـرَت عمارته كانَ في الآخَرِ فَرَج، وأنتَ على الصّراة تَجيئُكَ المِيرةُ في السّفن الفُراتِيّـة، والقوافلُ مـن مصرَ والشّـامِ في الباديةِ، وَتَجيئُـكَ آلاتٌ مـن الصّـينِ في البَحـر، ومـن الرّوم والموصـلِ في دجلةَ، فَأنـتَ بين أنهـارٍ لا يَصِلُ إليكَ العَدُو إلَّا في سَفينة أَو على قَنطرَةٍ على دِجلةَ وفُرات، فبَناها أربَعُ قِطَعٍ: مَدينَة السّلام وبادُورِيا والرَصافة ومَوضِع دارُ الخَليفـة اليوم [أي: عصر المقدسي، في القَرن الرّابـع الهِجريّ/العاشر المِيـلَاديّ]. وكانت أحسن شيء للمُسلِمينَ وأجَّل بلد وفوقَ ما وصفنا...

وذكرَ الشّمشـاطيُّ في (تاريخِه) أنَّ المَنصُورَ لَمَّا أرادَ بناءَ مَدينَة السّـلام، أحـضرَ أكبر مَن عُرِف من أهلِ الفقـهِ والعدالةِ، والأمانةِ والمعرفةِ بالهَندسـةِ، وكانَ فيهم أبو حنيفـةَ النّعمانُ بن ثابت والحَجّاج بـن أرطـأة، وحـشرَ الصّنّـاعَ والفَعَلَةَ من الشّـام والمَوصل والجَبل وسائرِ أعمالِه وأمرَ بخَطِّها وحفر الأساسـاتِ في سـنة ١٤٥هـ/٧٦٢م وتمت في سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م. وجعل عرضَ السّـور من أسـفلَ خمسـينَ ذراعًـا، وجعلَهـا بثمانيـةِ أبـوابٍ داخلة صِغـار وأربعةٍ خارجة كِبـار، بابِ البَـصرَةِ وبابِ الشّـامِ وبابِ خُراسانَ وبابِ الكوفةِ، وجعل الجامع والقصر وسـطها، وقبلة جامع الرّصافة أصح منه. ووجـدت في بعض خزائن الخُلَفَاء أن المَنصُور أنفقَ على[بِناء] مَدينَة السّلام أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين [ألف] درهم...».

(٨)

ووَصـفَ الزّهـرِيُّ[١٦] موضـعَ بَغـدَاد وبنائها، قائِلًا: «ولم يكنْ بموضعِ بَغدَادَ قبل بنائها عمارةٌ إلاّ الجِسر الذي فوقَها، والدِيرُ المُسـمّى بـدِيرِ عَبدون، وليسَ في بلادِ العراقِ أَطيبُ منها هَواءً ولا ماءً.

مَدينَـة بَغـدَادَ المعروفة بـمَدينَة السّـلام شرع في بنائهـا المَنصُـور وأتمَّها من بعدِه الرّشـيد. ولم تبلـغْ في معمـورِ الأرضِ مَدينَـةٌ ما بَلَغَـتْ هذهِ من الأمنِ والدّعَة والسَّعَة والرّفاهية والظّرفِ والرياسةِ والمملكـةِ في أيامِ هارونَ الرّشـيد. وما دامَ لأحَدٍ من جُملَةِ الملـوك المُتأخّرينَ ما دامَ لـهُ فيها من المَملكةِ والقدرةِ والأجنـادِ... وكانَ فيها من البناءِ الحَسَـنِ والقصورِ والرّياضِ والبسـاتينِ والكرومِ ما لم يكنْ في مَدينَةٍ قبلَها».

(٩)

وصـفَ ابـنُ جُبَيرٍ الأندلـسيّ[١٧] مَدينَة بَغدَادَ قبل دخولِها ووصولِه إليها، قائِلًا: «وكنّا سَمعنا أنَّ هواءَ بَغدَاد يُنبِـتُ السّرور في القلبِ، ويبعَثُ النّفسَ دائِمًا على الانبسـاطِ والأُنسِ، فلا تكادُ تَجدُ فيها إلَّا جَذلانَ طَربًا، وإن كانَ نازحَ الدّار مُغتَرِبًا».

وخَصَّصَ لها هذا العنوانَ: «ذِكرُ مَدينَةِ السّـلام بَغدَادَ حرسَـها اللـهُ تعـالى»، قائِلًا: «هـذه المَدينَةُ العتيقـةُ، وإنْ لمْ تَـزلْ حضرةَ الخِلَافَة العَبَّاسـيّة، ومَثابَةَ الدّعوةِ الإماميّة القرَشيّة الهاشميّة، قد ذَهبَ أكثَرُ رَسـمِها، ولم يبقَ منها إلَّا شَهيرَ اسمها، وهي بالإضافـة إلى مـا كانت عليـه قبل إنحـاء الحَوادِث عليها والتفـاتِ أعيُن النّوائِب إليها كالطَلَل الدّارِسْ، والأثَر الطّامِـسْ، أو تِمثالِ الخَيالِ الشّـاخِصْ، فلا حُسنَ فيها يستوقفُ البَصَر ويستدعي من المُستَوفِز العقـلَ والنَظـر إلَّا دجلتُهـا التي هي بـين شرقيِّها وغربيِّها منها كالمِرآة المَجلُوَّة بينَ صَفحَتين أو العقدِ المُنتظم بين لِبنَتَين، فهـي تردُها ولا تظمَأ، وتتطلعُ

(١٦) كتاب الجغرافية، ص ٥٣ - ٥٤.

(١٧) رِحلة ابن جُبَير، المسَماة: تَذكِرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ١٦٨ - ١٦٩.

منها في مـرآةٍ صَقيلةٍ لا تَصدَأ، والحُسـنُ الحريميُّ بين هوائِها ومائِها ينشَـأ، هو من ذلك على شهرةٍ في البلادِ معروفةٍ موصوفة، ففِتنُ الهوى، إلاّ أنْ يَعصمَ اللهُ منها، مُخَوِفَة».

أسـهبَ ابنُ جُبـيرٍ[١٨] في حديثِه عن أهـلِ بَغدَادَ وطبائعِهـم وسـجَّلَ لنا مشـاهداتِه عـن (مجالسِ العُلَمَاء) التي حضَرَها في بَغدَادَ، ومنها مجلسُ الشّيخِ الإمامِ رضيِّ الدّين القزوينيّ رئيس الشّافعيّة، وفقيهُ المَدرَسَـةِ النّظاميّـة، إذ حضرَ مجلسَـهُ في المَدرَسَـةِ النّظاميّـة بعد صـلاةِ العصرِ من يـومِ الجُمُعةِ ٥ / شـهر صفر عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، حضرَ مجلسًا ثانيًا بعد صلاةِ العصرِ أيضًا من يومِ الجُمُعةِ ١٢ / شهر صَفر المذكور، كما شاهَدَ صبيحةَ يومِ السّبت بعدَه مجلسَ الشّـيخِ الفقيهِ، الإمـامِ الأوحدِ، جمالِ الدّين أبي الفضائلِ عبـد الرّحمنِ بن عليّ الجَوزيّ، (ت ٥٩٧ه/ ١٢٠١م).

عاد ابن جُبَيرٍ إلى الحديثِ عن بَغدَاد، قائِلا[١٩]: «ثـم نَرجِع إلى ذِكرِ بَغدَادَ، هي كما ذكرناهُ جانبانِ: شرقيّ وغربيّ، ودجلـةُ بينَهما فأمَّا الجانبُ الغَربيّ فقد عَمَّهُ الخرابُ واستولَى عليه، وكانَ المعمورَ أولًا. وعمارَةُ الجانبِ الشّرقيّ مُحدَثَة، لكنَّه مع اسـتيلاءِ الخـرابِ عليهِ يَحتوي على سـبعَ عـشرةَ محلّةً، كُلّ مَحلّـةٍ منهـا مَدينَـةٌ مُسـتَقِلةٌ. وفي كُلّ واحدةٍ منها الحَمّامـانِ والثلاثةُ والثمانيَة منهـا بجوامعَ يُصَلى فيها الجُمُعـة. فأكبرُها القَريَةُ، وهي التي نزلَ فيها بِرَبَـضٍ منهـا يُعـرَف بـالمُربَعـة، على شـطّ دجلةَ بمقربةٍ من الجـسرِ، فحملتهُ دجلةُ بمَدَّها السّـيليّ، فَأعـدَ النّاسَ يعـبرونَ بالزوارقِ، والـزوارقُ فيها لا تُحصَى كثرةٌ، فالناسُ لَيلًا ونَهارًا من تمادي العبورِ فيها في نُزهة مُتصلة رجالًا ونساءً، والعادةُ أنْ يَكونَ لهـا جِسران: أحدُهما مِمَّا يقـربُ من دورِ الخليفةِ، والآخَـرُ فَوقهُ لكثرةِ النّاسِ، والعبـورُ في الزّوارقِ لا ينقطعُ منها».

(١٠)

وخَصصَ يَاقُوت الحَمَـويّ[٢٠] مادةً ومعلومات مُفَصلَـة عـن بَغـدَاد، مُبتدئًا حَديثـهُ، قائِـلًا: «أمُّ الدّنيا وسـيدةُ البلادِ، قال ابنُ الأنباريّ: أصلُ بَغدَادَ للأعاجـمِ، والعـربُ تختلـفُ في لفظِهـا إذ لم يكنْ أصلُها من كلامِهم ولا اشـتقاقُها مـن لغاتِهم، قال بعضُ الأعاجِم: تفسيرُه بسـتانُ رجلٍ، فَباغْ بُستانُ وداد اسـمُ رَجُل، وبعضُهم يقولُ: بَغْ اسـمٌ للصَنَم، فذُكر أنّه أهدِيَ إلى كسرى خِصيّ من المشرِقِ فأقطعهُ إيّاهـا، وكان الخِصيّ من عُبّاد الأصنامِ ببلَدِهِ، فقالَ: بَغْ داد أي: الصّنَم أعطاني، وقيلَ: بَغْ هو البُسـتان وَدادْ أعطى، وكان كِسرى قد وَهَبَ لهذا الخصيّ هذا البستانَ، فَقالَ: بَغْ داد فسُميتْ به...

وتسـمى مَدينَـة السّـلام أيضًـا، فأما الـزّوراءُ فمَدينَةُ المَنصُورة خاصَّةً، وسُميت مَدينَة السّلام لأنَّ دجلةَ يُقالُ لها: وادي السّـلام... لا تَقُل بَغدَاد، فإنَ بَغ صَنَم وَداد أعطى، ولَكن قُل: مَدينَة السّلام، فَإنَّ اللهَ هو السّلامُ والمُدنُ كلُّها له، وَقيلَ إنَ بَغدَادَ كانتْ قَبلُ سُـوقًا يَقصُدُها تُجّارُ أهل الصّـين بِتجاراتِهم فيربَحون الرّبحَ الواسِعَ، وكان اسمُ ملك الصّين لَغْ، فكانوا إذا انصَرَفـوا إلى بِلادِهم قالوا: بَغْ دادْ أي إنَ هذا الرّبح الذي ربحناه مـن عطيّةِ الملك، وقيلَ إنَّما سُـميَتْ مَدينَة السّـلام لأنَّ السّـلامَ هو الله فَأرادوا مَدينَةَ الله».

(١٨) المصدرُ نَفسُهُ، ص ١٧٠ – ١٧٤.
(١٩) المصدرُ نَفسُهُ، ص ١٧٥.
(٢٠) مُعجَم البُلدَان، ١/٤٥٦ -٤٥٧.

أفـردَ يَاقُوت الحَمَويّ[٢١] فَصلًا عـن بِدءِ عِمارةِ بَغـدَادَ، قـالَ فيـه: «كانَ أولُ من مَصَّرَهـا وجعَلها مَدينَـة، المَنصُور بالله أبو جَعفَرٍ عبد الله بن مُحَمَّدٍ بـن عليٍّ بن عبدِالله بن عبّـاس بن عبدِ المُطّلبِ ثاني الخُلَفَاءِ، وانتقـلَ إليها من الهاشـميّة، وهي مَدينَةٌ كانَ قـد اختَطّها أخـوهُ أبو العبّاسِ السّـفاح قربَ الكوفة، وشرَعَ في عمارتها [بَغدَاد] سنة ١٤٥ [هـ] ونزلها سنة ١٤٩[هـ]، وكان سببُ عمارتِها أنَّ أهلَ الكوفةِ كانوا يُفسِدونَ جُندهُ فبلغهُ ذلكَ من فعلِهم، فانتقلَ عنهم يَرتادُ مَوضِعًا، وقَالَ ابنُ عيّاش: بعثَ المَنصُورُ رُوّادًا وهو بالهاشميّة يَرتادونَ له مَوضِعًا يَبنـي فيـه مَدينَـةً ويكـونُ المَوضِع واسـطًا رافِقًا بالعّامّة والجُند...».

واصَـلَ الحَمَـويّ حديثَه عن ارتِيـاد أبي جَعفَرٍ المَنصُـور عـدة مواضع، قبـلَ أن يسـتقرّ رأيُه على اختيـارِ موضعِ بَغدَادَ؛ ليتّخذَهـا عاصمةً له، قائِلًا: «فأتى موضعَ بَغدَادَ وعبرَ موضعَ قصر السّـلام ثم صلَّى العصرَ، وذلك في صَيفٍ وحَرٍ شَـديد، وكانَ في ذلك الموضِـع بِيعَةٌ [للنَّصارَى] فَبـاتَ أطيَبَ مَبِيتٍ وأقـامَ يَومـهُ فلـم يَرَ إلاّ خـيرًا، فقالَ: هـذا موضِعٌ صالِحٌ للبِنـاء، فَإنَّ المادّة تأتيهِ مـن الفراتِ ودجلةَ وجماعةِ الأنهـار، ولا يَحملُ الجُندَ والرَّعيّةَ إلاّ مِثلُهُ، فَخَـطَّ البناءَ وقَـدّر المَدينَة ووضـعَ أولَ لِبنةٍ بيَدِهِ، فقـالَ: بسـمِ اللهِ والحمـدُ للهِ والأرضُ للـهِ يورثُها مَن يَشـاءُ من عبادِهِ والعاقبـةُ للمُتّقين[٢٢]، ثم قال: ابنُوا على بركةِ الله... ثم وَضعَ أساسَ المَدينَةِ مُدَورًا وجعلَ قصرَه في وسـطِها، وجعلَ لهـا أربعةَ أبوابٍ وأحكـمَ سـورَها وفصيلَهـا، فـكانَ القاصـدُ إليها من الـشّرقِ يدخلُ من بابِ خراسـانَ والقاصدُ من الحجازِ يدخلُ من بابِ الكوفةِ والقاصدُ من المغربِ يدخلُ من بابِ الشّامِ، والقاصِدُ من فارِس والأحوازِ وواسِط والبَصرةِ واليَمامةِ والبَحرينِ يَدخُلُ من بابِ البَصرة.

قالوا: فَأنفقَ المَنصُور عـلى عمارة بَغدَاد ثمانيةَ عـشرَ ألفَ ألـفِ دينار، وقَـالَ الخطيـبُ في رواية: أنَّـه أنفَقَ على مدينتِه وجامعِهـا وقصرِ الذَّهبِ فيها والأبـوابِ والأسـواقِ إلى أنْ فرغَ مـن بنائِها، أربعةَ آلافِ ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثةً وثمانينَ ألفَ دِرهم.

وكان المَنصُـور كما ذكرنا بنـى مدينتَه مُدوّرةً وجعـلَ دارَه وجامعَهـا في وسـطِها، وبنَـى القبَّـةَ الخَـضراءَ فوقَ إيـوان، وكان عُلوُّهـا ثمانينَ ذِراعًا، وعـلى رأسِ القبَّةِ صنـمٌ على صُورَةِ فـارسٍ في يَدِهِ رُمح... «[٢٣].

أسـهبَ يَاقُـوت الحَمَـويّ[٢٤] بإيـراد معلوماتٍ مُفصَلة عـن « بَغدَاد»، تحَدثَ فيها عن وتسـميتها وعمارتها، ثم خَصـصَ لها العنوان: فلنذكر الآن ما وَرد في مَـدِح بَغـدَاد[٢٥]، نقتبس منـه نُصوصًا من الأقـوالِ المأثورةِ عنها، قائِلًا: «وفي مـدحِ بَغدَادَ قالَ بعضُ الفُضَلاء: بَغدَادُ جَنَّةُ الأرضِ ومَدينَةُ السّـلام وقُبَّة الإسـلامِ ومَجمعُ الرّافدينِ وغُـرّةُ البلادِ وعَينُ

(٢١) المصدَرُ نَفسُهُ، ١/ ٤٥٧ -٤٥٩.

(٢٢) هـذا اقتبـاسٌ مـن قوله تعـالى: «قال مـوسى لقومِهِ اسـتعينوا باللـهِ واصـبِروا إنَّ الأرضَ للـهِ يُورثُها مَن يَشـاءُ مِن عِبـادِهِ والعاقِبةُ للمُتَّقين». سـورة الكهف، الآية: ١٢٨.

(٢٣) نَقـلَ يَاقُوت الحَمَويّ (يُنظَـر: هامش -٢١ - أعلاه)، كثـيرًا من معلوماته (عن اختيـار مَوضِع مَدينَة بَغدَاد وَبِنائِها)، من كتاب: بَغدَادُ مدينةُ السّـلام، لابنِ الفَقيهِ الهَمَذانـيّ، ص ٣١، وعن أبـوابِ مدينةِ بَغدَاد الأربعةِ، يُنظَـر: المَصـدَرُ نَفسُـهُ، ص ٣٥، ابن رُسـته. الأعلاقُ النّفيسـة، ص ١٠١، المقدسيّ. أحسـنُ التّقاسيم، ص ١٢٨.

(٢٤) مُعجَـم البُلدَان، ١/ ٤٥٦ -٤٦٠، وبـدَأَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «بَغدَاد أُمُّ الدّنيا وَسَيدَةُ البِلاد».

(٢٥) المصدَرُ نَفسُهُ، ١/ ٤٦٠-٤٦١.

العـراقِ ودارُ الخِلَافَةِ ومَجمَعُ المَحاسِـن والطيباتِ ومعدنُ الظرائفِ واللطائفِ، وبها أربابُ الغاياتِ في كُلّ فنّ، وآحادُ الدّهرِ في كُلّ نوعٍ، وكانَ أبو إسـحاق الزّجَّاج يقولُ: بَغدَادُ حاضِرةُ الدّنيا وما عداها باديَة، وكان أبو الفَـرَجِ البَبّغاءُ يقولُ: هي مَدينَةُ السّـلامِ بل مَدينَةُ الإسـلام، فـإنّ الدّولةَ النّبويّـة والخِلَافَة الإسـلَامِيّة بها عَششَـتا وفَرخَتا وضَربتَا بعروقِهما وبَسَـقَتا بفروعهما، وإنَ هَواءَها أغذى من كُلّ هَواءٍ وماؤها أعذَبُ من كُلّ ماء، وإنَّ نَسِيمَها أرَقُ من كُلّ نسـيم، وهي من الإقليمِ الاعتداليّ بمنزلةِ المَركزِ من الدّائـرةِ، ولم تَزَلْ بَغدَادُ مَوطِنَ الأكاسِرةِ في سـالِفِ الأزمانِ ومنزلَ الخُلَفَاءِ في دولةِ الإسلام...».

- المبحث الثّاني -

أشعار في مدح بَغدَاد والثنـاء عليها

قـالَ عُمـارةُ بـن عَقيلِ بـنِ بـلالٍ الخَطَفيّ: (طويل).

أَعايَنْتَ في طُول من الأَرض أَو عُرضِ
كبَغدَادَ من دارٍ بها مَسكني الخفضِ
صفا العيشُ في بَغدَادَ واخْضَرَّ عُودُهُ
وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غَضِّ
تطولُ بها الأعمارُ أنَّ مياهَهَا
عِذابٌ وبعضُ الماءِ أعذبُ من بَعضِ[٢٦]

(٢٦) جاءَ البيت الأول في صِيغةٍ أُخرى، بما نَصُهُ:
أعايَنـتَ في طـولٍ من الأرضِ أو عـرض كَبَغدَاد دارًا، إنها جَنةُ الأرضِ
ووَرَد البيت الثّالث هذا، بِصيغة أُخرى، وبما نَصُهُ:
تطـول بها الأعمـارُ، إنَ غذاءَها مَريءٌ، وبعضُ الأرض أمرَؤ مِنْ بَعضِ
وَوردَ بيـت الشِـعر الإضـافي (الرابع) بَعدَهُ، في التّسلسـلِ أعلاهُ، بما نصُّهُ:
قَضى رَبُّها أن لا يموتَ خليفة بها، إنَه ما شاءَ في خَلقهِ يَقضي

[قـضى ربُّها أنْ لا يَمـوتَ خلـيفةٌ
بها إنَّـهُ ما شـاءَ في خلقِـهِ يَقضي]
تَنامُ بها عينُ الغريبِ ولن تَرى
غريبًا بأرضِ الشّامِ يَطمحُ في الغَمضِ
فإنْ جُزيَتْ بَغدَادُ يَومًا بقرضِها
فما أسلَفَتْ إلَّا الجَميلَ من القَرضِ
وإنْ رُميتْ بالهَجرِ منهمْ وبالقِلى
فمـا أصبحَـتْ أهـلًا لِهجـرٍ ولا بُغـضِ[٢٧]

وقَالَ آخَر[٢٨]: (الطَّويل)

أَبَغدَادُ يا دارَ المُلوكِ ومُجتبَى
صنوفِ المُنى، يا مُستَقرَّ المَنابرِ
ويا جَنَّةَ الدّنيا ويا مَطلبَ الغَنَى،
ومُنبَسطَ الآمالِ عندَ المَتاجرَ

وقَـالَ عُمـارَةُ بنُ عقيـلِ بن بـلالِ بن جريـر[٢٩]:

يُنظَر: ديوان عُمارة بن عقيل، ص ٩٧ (ما يُنسَـب لعُمارة بن عقيل ولغيره من الشُّـعَرَاء)، يُنظَر أيضًا: الخطيب البَغـدَادي. تاريـخ بَغـدَاد، ١/ ٨٩، الحَمَـويّ. مُعجَم البُلـدَان، ١/ ٤٦٠ - ٤٦١، والمقطوعـة في المصـادر الثّلاثـة كاملـةً في سـبعة أبيـاتٍ، وقـد وردت بعض الاختلافات في كلمات الأبيات الشِعرية في المصادر التي ذَكَرَت المقطوعة.

(٢٧) ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ. بَغدَاد مدينة السَّلام، ص ٤٠ - ٤١، ولم يَذكُر اسم الشَّاعِر، في حين وَثَقنا اسم الشَّاعِر، وهوَ: عُمارَة بن عَقيل بن بِلال بن جَرير بن الخَطفي، في بداية المبحـث الثّاني من بحثنا هـذا، يُنظَر: ديوان عُمـارة بن عقيل، ص ٩٧ (ما يُنسَـب لِعُمـارَة ولِغَيرِهِ مـن الشُّـعَرَاء)، الخطيـب البَغـدَادي. تاريـخ بَغدَاد، ١/ ٧٥ (وذكـرَ الأبيات الثّلاثـة الأولى منها فقط)، ص ٨٩ (وذكر المقطوعة الشِعرية في سَبعة أبيات)، وكذلك ذكرها كاملةً: الحَمَـويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/ ٤٦١، مع المُقارنَـة في الاختلاف بينَ بعـض الكلمات - في الأبيات السبعة، في المصادر الثّلاثة التي ذَكرناها أعلاه.

ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ. بَغدَاد مدينة السـلام، ص (٢٨) ٦٠، الحَمَـويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/ ٤٦١ – ٤٦٢، وجاء صدر البيت الأول: «بَغدَاد يا دار الملوك».

(٢٩) المصـدرُ نَفسُـهُ، ص٦٢، (ولم يُسَـمِ الشَّـاعِر قائِلًا:

(بسيط)

ما مثلُ بَغدَادَ في الدّنيا ولا الدّينِ،

على تَقلُّبِها في كُلّ ما حِينِ

ما بين قُطْرَبّلٍ فالكَرخُ نَرجِسَةٌ

تُندي، ومنبتُ خَيريٍّ ونسرينِ[٣٠]

تحيا النّفوسُ برَيّاها، إذا نفحتْ،

وحرَّشَتَ بينَ أوراقِ الرّياحينِ

سُقيًا لتلكَ القصورِ الشّاهقاتِ وما

تُخفي من البَقَرِ الإنسِيَّةِ العِينِ

ولما حَجَّ هارونُ الرّشيدُ وبَلَغَ زَرُودَ[٣١]، التفتَ إلى ناحيةِ العِراقِ، وقال: (طويل)

أقولُ وقد جُزنا زَرُودَ عَشيَّةً،

وكادتْ مَطايانَا تجوزُ بنا نَجدا

على أهلِ بَغدَادَ السّلامُ، فإنَّني

أزِيدُ بِسَيْري عن ديارِهم بُعدا[٣٢]

ولما قُلِدَ عُبَيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بن طاهِر بلدَ اليَمن، وأرادَ مُغادرةَ بَغدَادَ، قال: (وافر)

أيرحَلُ آلِفٌ ويُقيمُ إلفٌ،

وتحيا لوعةٌ ويموتُ قَصفُ؟

على بَغدَادَ دارِ اللَّهوِ مِنّي

سلامٌ ما سَجا للعَينِ طرفُ

وما فارقتُها لقِلًى، ولكنْ

تناولَني من الحَدَثانِ صِرفُ

ألا رَوحٌ ألا فَرجٌ قريبٌ،

ألا جارٌ من الحَدَثانِ كَهفُ

لعلَّ زَمَانَنا سَيعودُ يَومًا،

فَيَرجِعُ آلِفُ وَيَسِيرُ إلفُ

فَبلغَ الوزيرَ هذا الشّعرُ، فأعفاهُ من التّقليد[٣٣].

مدح بَغدَاد[٣٤]: (المجتَث)

بَغدَادُ دارَ الملوكِ كانتْ

حتى دَهَاهَا الذي دَهَاهَا

ما غابَ عنها سرورُ مُلكٍ

أعارَهُ بَلدةً سواهَا

ما سُرَّمَرَّى بِسُرَّمَرَّى

بل هيَ بؤسٌ لمَنْ رآهَا

فهي كما قال الشَّاعِر)، يُنظَر أيضًا: الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/ ٤٦٢، وذكرَ اسم الشَّاعِر عُمارةَ بنَ عقيلٍ بنِ بلالٍ بن جرير، مع بعضِ الاختلافاتِ في الكَلِمَات. وسبقَ أن ذكرَ ابنُ الفَقيهِ الهَمَذانيّ بَغدَادَ مدينةَ السَّلام، ص٦١، بَيتي شِعر فقط، قائِلًا: « كما قال عُمارة:

ومن منازلَ ماذا ببَغدَادَ من خيرٍ أفانينِ
للدّنيا وللدينِ
تُمسي الرياحُ بها حَسرَى إذا دَرَجَتْ
وحَرَّشتْ بين أغصانِ الرَّياحينِ

(٣٠) قُطْرَبُّل: قريةٌ بين بَغدَاد وعُكبْرا، يُنسَب إليها الخَمْر، وكانت مُتنزَهًا للبَطالينَ وحانةً للخَمَّارينَ، وقد ذكرَها الشُّعَرَاء كثيرًا، وقيل: هو اسم طسوج من طساسيج بَغدَاد، أي: كُورَة. الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ٤/ ٣٧١ .

(٣١) زَرُود: يَجوزُ أن يكون من قولهم: جَمَل زَرُودُ، أي: بَلُوع، ولَعلَّها سُميَت بذلك لابتلاعِها المياهَ التي تُمطُرُها السُّحُب؛ لأنَها رِمالٌ بينَ الثّعلبيّة والخُزَيميّة في طريق الحاجِّ من الكوفةِ. وتُسَمّى زَرُود العَتيقةِ، وهي دونَ الخُزَيميّة بمسافة مِيل (١٥٨٤ مترًا)، وفي زَرُود بُركةُ ماءٍ وحوضٌ وقَصُر.
ويوم زَرُودٍ من أيامِ العربِ قبل الإسلامِ مَشهور، بين بَني تَغلب وبَني يَربوع، وَرُوِيَ أنَ هارونَ الرشيدَ حَجَّ في بعضِ الأعوام، فلما أشرَفَ على الحِجاز تَمَثَّلَ بقول الشَّاعِر، في البَيتَين الشِعريَين المَذكُورَين (في المَتن) أعلاه. الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ٣/ ١٣٩-١٤٠.

(٣٢) ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ. بَغدَاد مدينة السلام، ص٦٣، الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/ ٤٦٢-٤٦٣، ٣/ ١٤٠.

(٣٣) المصدَرُ نَفسُهُ، ص ٦٣، الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/ ٤٦٣.

(٣٤) ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ. بَغدَاد مدينة السَّلام، ص ٨٩، ولم يذكُر اسم الشَّاعِر.

عَجَّلَ ربّي لها خرابًا

برغمِ أنفِ الذي بَناهَا

وقال ابن زُرَيقٍ الكاتب الكوفيّ[٣٥]: (البسيط)

سافرتُ أبغي لبَغدَادٍ وساكنِها

مِثْلًا، قد اخترتُ شيئًا دونَهُ اليَاسُ

هيهاتَ بَغدَادُ، والدُنيا بأجمعِها

عندي، وسكانُ بَغدَادٍ همُ النّاسُ

وَوُجِدَ على حائِطٍ بجزيرةِ قبرص، مَكتوبًا(١): (الطَّويل)

فهل نحوَ بَغدَادٍ مزارٌ، فيلتقي

مشوقٌ ويَحظَى بالزيارةِ زائرُ

إلى اللهِ أشكو، لا إلى النّاسِ، إنَهُ

على كَشفِ ما ألقَى مِن الهَمِّ قادرُ

وكان القاضي أبو مُحَمَّد عبدُ الوهّابِ بن عليّ بن نصر المالِكيّ، قد طالَ به المقامُ في بَغدَادَ، فَرحِلَ إلى مصرَ، وخَرجَ البَغدَاديون يُودّعونَهُ ويتوَجعونَ لِفراقِهِ، فقال: (طويل)

سلامٌ على بَغدَادَ من كُلّ منزلِ،

وحُقَّ لها مني السّلامُ المُضاعَفُ

فواللهِ ما فارقتُها عن قِلًى لها،

وإني بشَطَي جانبَيها لعَارِفُ

ولكنَّها ضاقَتْ عَلَيَّ برَحبِها،

ولم تكنْ الأرزاقُ فيها تُساعِفُ

وكَانَتْ كَخِلٍ كُنتُ أهوى دُنُوَهُ،

وأخلاقُه تَنأى بهِ وتُخالِفُ

وقَالَ طاهرُ بنُ المُظفّر بن طاهر الخازن[٣٦]: (الطَّويل)

سَقى اللهُ صَوبَ الغادِياتِ مَحلةً

ببَغدَادَ، بين الخُلدِ والكرخِ والجسرِ

هيَ البَلدَةُ الحَسناءُ، خُصَّتْ لأهلِها

بأشياءَ لمْ يُجمعنَ مُذْ كُنَّ في مِصرِ

هواءٌ رقيقٌ في اعتدالٍ وصِحَّةٍ،

وماءٌ له طعمٌ ألَذُ من الخَمرِ

ودجلتُها شَطّانِ قد نُظِما لنا

بتاجٍ إلى تاجٍ، وقصرٍ إلى قصرِ

ثَراها كَمِسكٍ، والمياهُ كفِضَةٍ،

وحَصباؤُها مثلُ اليواقيتِ والدُرِّ

وقال مُحَمَّد بنُ عليٍّ بن حبيبٍ الماورديّ، كتبَ إليَّ أخي من البصرةِ، وأنا ببَغدَادَ: (البسيط)

طِيبُ الهواء ببَغدَادٍ يُشوّقُني

قِدمًا إليها، وإنْ عاقتَ مَعاذيرُ

وكيفَ صبريَ عنها، بعدَما جَمعتْ

طيبَ الهواءَ ممدود ومقصور؟[٣٧]

وقال شاعِرٌ يتشوّقُ إلى بَغدَادَ[٣٨]: (الطَّويل)

ولما تجاوَزتُ المدائنَ سائِرًا،

وأيقنتُ يا بَغدَادُ أنّي على بُعدِ

---

(٣٥) الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/٤٦١.

(٣٦) الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/٤٦٣، ويُنظَر عن بَيتَي محمد بن علي بن حبيب الماوردي: المَصدَرُ نَفسُهُ والصفحة.

(٣٧) رَوى الزُهرِي (كتاب الجُغرافية، ص٥٤) أنَّ القاضي ابن العريف قالَ حينَ هَمَّ بالخُروج من بَغداد إلى الأندلس: (البسيط)

وكيفَ أرحل عن بَغدَاد إذ جَمعَت طِيب الهَواءَين مَقصُور وَمَمدُود

(٣٨) الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/٤٦٣- ٤٦٤، يُنظَر أيضًا عن هذه الأبيات الخَمسَة وما يليها من الشِعر: (المَصدَرُ نَفسُهُ، ١/٤٦٤)، والى نهاية المبحث الثّاني. وللمَزيد من الأشعار عن مدينة بَغدَاد ومدحها، يُنظَر أيضًا: الخطيب البَغدَادي. تاريخ بَغدَاد، ١/٧٥ -٧٦، ٨٢- ٨٣.

عَلمتُ بأنَّ اللهَ بالِغُ أمرِهِ،

وأنَّ قضاءَ الله ينفذُ في العَبدِ

وقلتُ، وقلبي فيه ما فيه من جَوى،

وَدمعي جارٍ كالجُمانِ على خَديَ:

تُرى اللهُ يا بَغدَادُ يَجمعُ بينَنَا

فألقى الذي خَلَّفتُ فيكِ على العَهدِ؟

وقال مُحَمَّدُ بن عليٍّ بن خلف النّيرمانيّ: (الطَّويل)

فِدى لَكِ يا بَغدَادُ كُلّ مَدينَةٍ

من الأرضِ، حتى خُطتي وِدِيارِيَا

فقد طُفتُ في شرقِ البلادِ وغَربِها،

وسَيَرتُ خَيلي بينَها ورِكابيَا

فلَم أرَ فيها مثلَ بَغدَادَ منزلًا،

ولَم أرَ فيها مثل دجلةَ وادِيَا

ولا مثلَ أهلِيها أرقَّ شَمائلًا،

وأعذبَ ألفاظًا، وأحلى معانِيَا

وقائلةٍ: لو كانَ وُدُّكَ صادِقًا

لبَغدَادَ لم تَرحلْ، فقلتُ جَوابِيَا:

يُقيمُ الرّجالُ المُوسرونَ بأرضِهِم،

وتَرمِي النّوى بالمُقتِرينَ المَرَامِيَا

وبهذا القَدَر نَكتفي بهذهِ النّماذجِ المُختارةِ من الأشعارِ التي قِيلَتْ بحقِّ مَدينَةِ بَغدَادَ، ويطولُ بنا المقامُ إذا أردنا استقصاءَ كُلّ ما قيلَ عن بَغدَادَ في مؤلفاتِ الرّحالةِ والجُغرَافيّينَ العَربِ والمُسلِمينَ.

- المبحث الثّالث -

نُصوص وروايات رائدة ونادرة عن بَغدَاد

وفضلًا عن الأَشعارِ هنالكَ كثيرٌ من مأثورِ الكلام العَرَبيّ البَليغ، الذي قيلَ بحقِّ مَدينَةِ بَغدَادَ، سنوردُ بعضَ النّصوصِ والرّواياتِ والحِكاياتِ عن خَصائِصها ووصفِها.

قيل لرَجُلٍ كيفَ رأيتَ بَغدَاد؟ قال الأرضُ كلها باديَة، وبَغدَادُ حاضرَتُها[٣٩].

وقَدِمَ عبدُ الملكِ بنُ صالِح بن عليٍّ إلى بَغدَادَ، فَرأى كَثرَةَ النّاسِ بها، فقالَ: "ما مَرَرتُ بِطَريقٍ من طُرُقِ هذه المَدينَةِ إلاّ ظَنَنتُ أنَ النّاسَ قد نُودِيَ فيهم"(٤٠).

ونرجح مِمَّا وَردَ في هذا النّص أنَهُ تشبيه بيوم الحشر؛ بسببِ تَجَمُع النّاس وشِدة ازدحامِهم فيه، فَشَبَّهَ طرقَ مَدينَةِ بَغدَادَ وازدحامَ النّاسِ فيها بيومِ الحشرِ والقيامةِ، مِمَّا يوضَحُ كثرةَ سكانها، في معظمِ طرقِها ومَحلّاتِها.

وقَالَ المَنصُور لبعضِهم: "أخبِرني عن بَغدَادَ، قال: جِنةٌ بَينَ حَماةٍ وكَنَّةٍ، تَحسُدانِها، ودجلةُ والزَّابُ يَتَبارَيانِ عليها"[٤١].

وقَالَ بعضُ الأدباء:" ببَغدَادَ يَصفو العَيشُ للمُتَعبِدِ وللقارِفِ اللّاهِي وللمُتَوَدِّد"[٤٢].

وقَالَ الجاحِظُ: رأيتُ المُدنَ المَذكورَةَ بالإتقانِ والإحكامِ ببلادِ الرّوم والشَّاماتِ وغيرها، فَلَمْ أرَ مَدينَةَ قَطُّ أرفعَ سَمكًا ولا أحكَمَ سُورًا ولا أجوَدَ استِدارَةً ولا أوسَعَ أبوابًا ولا أبهَى عُقودًا ولا أحكَمَ سُورًا وفَصِيلًا من مَدينَةِ المَنصُور، فَكأنَّما صُبَّتْ صَبًا في قالَبٍ وأُفرِغَت إفراغًا"[٤٣].

وقَالَ أبو بكر بن عيّاش، وقد ذكرَ بَغدَادَ، أنَّها: مِصْرُ العرَبِ، وكانَ بعضُهم يقولُ: "بَغدَادُ دارُ دُنيا

---

(٣٩) ابنُ الفَقيهِ الهَمَذانيّ، بَغدَادُ مدينةُ السَّلام، ص ٦٠.
(٤٠) المصدرُ نَفسُهُ، ص ٦٢.
(٤١) ذكر الحَمَويّ زيارةَ عبدِ الملكِ بن صالح بن علّي بن عبدِ الله بن عبَّاس إلى بَغدَادَ، ونصَّ ما قالَ عنها، بعدما رأى كَثرة الناس فيها. مُعجَم البُلدَان، ١/٤٦٢.
(٤٢) ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ، بَغدَاد مدينة السلام، ص ٦٣.
(٤٣) المصدرُ نَفسُهُ، ص ٦٤.

وآخِرَة"[٤٤].

ووصفَ ابنُ حوقلَ[٤٥] الكوفةَ في عصره (القَرن الرّابع الهِجريّ/ العاشر المِيلَاديّ)، مُوضِحًا تبعيَّتها لَمدينَةِ بَغدَادَ، قائِلًا: "والكوفةُ في هذا الوَقتِ وأعمالُها وسوادُها مُضافَةٌ إلى ضَمانِ مَدينَةِ السّلام ومَرفوعةٌ أعمالُها إلى دواوينِها".

ووصفَ المَقدسيُّ[٤٦] مَدينَةَ زَبيدٍ التي بنَاها الخليفةُ المأمونُ العَبَّاسيّ، وجعلَها مُدوَّرةً مثلَ بَغدَادَ، قائِلًا: "قصبةُ تهامةَ، وهو أحدُ المِصْرَين، لأنَّهُ مُستَقرّ ملوكِ اليَمنِ، بلدٌ جَليلٌ حَسَنُ البُنيان، يُسَمونَهُ: بَغدَادَ اليَمن، لَهُم أذنى ظَرف وبهِ تُجارٌ وكُبار وعُلَمَاء وأُدباء، مُفيدٌ لمن دَخلهُ مُباركٌ على مَن سَكَنهُ...".

وَوَصفَ الزّهريُّ[٤٧] مَدينَةَ القيروانِ، في إفريقِيَة (تونس)، بأنَّها كانتْ تُضاهي بَغدَادَ، قائِلًا: "والقيروانُ مَدينَةٌ عظيمةٌ جمعتْ بين طِيبِ الهواءِ وعذوبةِ الماءِ وجميعِ المَحاسنِ، وهي أولُ مَدينَةٍ عَمُرَت في الأرضِ، وكانَت عَظِيمَةَ البِناء، فيها من الرّخامِ الأبيضِ تَماثيلُ، وهي أحسَنُ بلادِ اللهِ فواكهَ وزَرعًا، كانت تُضاهِي بَغدَادَ، وهي من قَواعِدِ الإسْلامِ الأربعةِ: بَغدَادُ والقاهرةُ والقيروانُ وقرطبةُ، وكانَ فيها من العُلَمَاء والفُقَهَاء والشُّعَرَاء والأُدَبَاء ما كانَ في البَصرَة...".

وفي حديثِهِ عن جُرجانَ، ذكرَ الغرناطيُّ[٤٨] أنَّهَا تُسمى: بَغدَادَ الصّغرى، وهي قاتِلةٌ للغَريبِ وذلك لاخْتلافِ هوائِها.

وذكرَ خصائصَ البلادِ في الملابسِ، ومنها: سَقلاطون بَغدَاد، والسَقلاطون قِماشٌ مَصنُوعٌ مِن الحَريرِ المُذَهَبِ الحَواشي[٤٩].

واستكمالًا لِبحثنا وَثَّقنا بَعضَ الرّواياتِ والنُصوصِ الطّريفةِ، عن مدحِ مَدينَة بَغدَادَ وأهلِها، وبيانِ خَصائِصها ومَحاسِن مُواصفاتِها ومَنزلتِها:

فقد وَصفها ابنُ حَزم قائلا[٥٠]: "بَغدَادُ حاضرةُ الدّنيا ومَعدنُ كُلّ فضيلةٍ، والمحلَّةُ التي سبقَ أهلُها إلى حَملِ ألويةِ المعارفِ والتَّدقيقِ في تصريفِ العلومِ، ورقَّةِ الأخلاقِ والنَّباهةِ والذَّكاءِ وحِدَّةِ الأفكارِ ونقاءِ الخَواطر".

ونَقلنا عن مؤرِّخِها الشّهير والفَذّ العالِم: الخطيبِ البَغدَاديّ، عِدَةَ رِواياتٍ[٥١] ونصوصٍ، منها: "نبّأنا أبو خليفة، قالَ نبَّأنا مُحَمَّد بن سلام، قال: سمعتُ أبا الوليدِ يقولُ: قالَ شُعبةُ[٥٢]: أدَخَلتَ بَغدَاد؟ قُلتُ: لا، قالَ: فَكَأنَّكَ لَمْ تَرَ الدّنيا".

وفي رِوايةٍ قال: "حدّثني عبدُ العزيز بن عليٍّ الوَرَّاق، قالَ: سَمعتُ مُحَمَّد بنَ أحمدَ بنِ يعقوبَ الجرجرائِيّ، يقولُ: سَمعتُ أحمدَ بن يوسفَ بن موسى، يقولُ: سَمعتُ يونسَ بنَ عبدِ الأعلى[٥٣]، يقولُ: قال لي مُحَمَّد بن إدريس [الإمام الشّافعي]: يا يُونُس

---

(٤٤) المصدَرُ نَفسُهُ، ص ١٠٨.
(٤٥) صُورة الأرض، ص ٢٤٠.
(٤٦) أحسَن التّقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٠١.
(٤٧) كتاب الجُغرافية، ص١٠٩.
(٤٨) رِحلة الغرناطي، المسَماة: تُحفَة الألباب ونُخبَة الإعجاب وَرِحلة إلى أوربة وآسية، ص٥٥.

(٤٩) المصدَرُ نَفسُهُ، ص٥٩ وهَامِشُها.
(٥٠) رسائل ابن حزم ٣/١٧٦.
(٥١) تاريخ بَغدَاد، ١/٦٩، وذكر الخطيب البَغدَادي الروايات الأربع الأولى في هذه الصفحة.
(٥٢) أبو بسطام شُعبَة بن الحَجاج بن الورد مولى الأشاقِر، واسِطي الأصل، بصري الدّار، زار بَغدَاد مرتين. كانت وفاته في البصرة عام ١٦٠هـ/٧٧٧م، وعُمرهُ (٧٥) عامًا. ابن خلكان. وفيات الأعيان، ٢/٤٦٩ – ٤٧٠.
(٥٣) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن مَيسَرة بن حفص بن حيان الصدفي المصري، الفقيه الشافعي، أحد أصحاب الإمام الشافعي، المُكثِرين في الرِواية عنه والمُلازَمة لهُ، كان كثير الوَرع مَتين الدّين، ولادته سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، ووفاته يوم الثّلاثاء ليومين بقيا من شهر ربيع الآخِر عام ٢٦٤هـ/٨٧٨ م، ودفن في مقابِر الصَدَف، وقبرهُ مشهور في (القَرافَة) مقبرة القاهرة. ابن خلكان. وفيات الأعيان، ٧/٢٤٩، ٢٥٢-٢٥٣.

دَخَلتَ بَغدَاد؟ قُلتُ: لا، قالَ: يا يونُس ما رأيتَ الدّنيا ولا رَأيتَ النّاسَ"(٥٤).

وفي روايةٍ ثالثة، قالَ (الخَطيبُ البَغدَاديُّ): "بَلَغَني عن أحمدَ بنِ أبي طاهِر(٥٥). قالَ: قِيلَ لِرَجُلٍ: كيفَ رأيتَ بَغدَاد؟ قالَ: الأرضُ كُلُّها بادِية، وبَغدَاد حاضِرَتُها".

وعن أخلاقِ أهلِ بَغدَادَ وصِفَاتِهم، ومكانتِهم العلميَّة والدينيَّة، واهتمامِهم بعِلمِ الحديثِ خاصَّةً، روى الخطيبُ البَغدَاديُّ، (في روايتِهِ الرّابعة) ما نَصُّهُ: "أخبرنا مُحَمَّد بن عليٍّ بن مُحَمَّد الوَرَّاق، قال: أنبأنا أحمدُ بن مُحَمَّد بن عمرانَ، قال: نبّأنا عبدُ الباقي بن قانع، قال: نبَّأنا خلفُ بن عَمرو العُكبريّ، قال: سَمعتُ ابنَ عائِشةَ يقولُ: ما رأيتُ أحسَنَ من تَلَطُّفِ أصحابِ الحديثِ ببَغدَادَ للحديثِ"، وَقِيلَ في رواية أخرى: "ما رأيتُ قَومًا أعقَلَ في طَلَبِ الحديث من أهلِ بَغدَاد".

وفي رِوايةٍ(٥٦) خامِسة، جاءَ فيها ما نَصُّهُ: "سَمِعتُ أبا بَكرِ بنَ عَيَّاشٍ، يقولُ: الإسلامُ ببَغدَادَ، وإنَّها لَصَيَّادَةٌ تَصِيدُ الرّجالَ، ومَنْ لَمْ يَرَها لَمْ يَرَ الدّنيا".

وفي روايةٍ(٥٧) عن أبي عثمانَ (عَمْرو بن بَحَر) الجاحِظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩ م)، في آخِرِ عُمرِهِ، قال: "الأمصارُ عَشرَةٌ، فالصِناعةُ بالبَصرةِ، والفَصاحَةُ بالكُوفةِ، والخَيرُ ببَغدَادَ...".

(٥٤) يُنظَر أيضًا: الحَمَويّ. مُعجَم البُلدَان، ١/٤٦٣، مع بعض الاختلافات في كلمات الرواية.

(٥٥) أحمد بن أبي طاهر (اسم أبي طاهر: طيفور)، أبو الفضل الكاتب، وهو: مرورذي الأصل، أحد البُلغاء الشُّعَرَاء الرواة، ومن أهل الفهم المذكورين بالعِلم، ولادته في بَغدَاد عام ٢٠٤ هـ/٨١٩م، ووفاته في بَغدَاد، ودُفِن في مقابر باب الشام ببَغدَاد، عام ٢٨٠ هـ/٨٩٣م، اشتَهرَ بتأليف، كتاب: بَغدَاد، « المُصَنَف في أخبار الخلفاء وأيامهم «، (ويُسمَّى: تاريخ بَغدَاد). الخطيب البَغدَادي. تاريخ بَغدَاد، ج٤/٢١١.

(٥٦) تاريخ بَغدَاد، ١/٧١.

(٥٧) المصدرُ نَفسُهُ، ١/٧٢.

وقَالَ الخطيبُ البَغدَاديُّ(٥٨): "ثُمَ إنَّ بَغدَادَ سُمِيَتْ حينَ سُكِنَت مَدينَةَ السّلامِ، فَليسَ في الأرضِ مَدينَة على هذا الاسمِ غَيرُها، وكانَ بعضُ إخوانِنا إذا ذَكرَها يَقرَأ قَولَ الله: بَلدَةٌ طَيبَةٌ وَربٌّ غَفورٌ(٥٩).

وَسَماها أبو جَعفَرٍ المَنصُور: مَدينَة السّلام؛ لأنَّ دجلة كانَ يُقال لَها: واديَ السّلام(٦٠).

وثمةَ نَصٌّ بَليغٌ طَريفٌ، ذو دلالاتٍ ومعانٍ، غاية في الأهمية والرَوعة، عن وصف مَدينَة بَغدَادَ وطبيعتها ومميزاتها وأبرز خُططِها العُمرانيَّة، لمؤرخِ بَغدَادَ الشّهير الفَذّ (من غَير الجُغرَافيّين والبُلدَانيينَ): الشّيخِ أبي بكرٍ الخطيبِ البَغدَاديّ(٦١)، يقولُ فيه: "لم يكنْ لبَغدَادَ في الدّنيا نظيرٌ في جَلالَة قَدرِها، وتَميُزِ خواصِّها وعَوامِّها، وَعِظَمِ أقطارِها، وسِعةِ أطرارِها(٦٢)، وكَثرَةِ دُورِها ومنازِلِها، ودروبِها وشِعوبِها، ومِحالِّها وأسواقِها، وسِككِها وأزِقتِّها، ومساجِدِها وحَمّاماتِها، وطُرزِها وخاناتِها، وطِيبِ هوائِها، وعُذوبَةِ مائِها، وبَرَدِ ظِلالِها وأفيائِها، واعتِدالِ صَيفِها وشِتائِها، وصحَّةِ رَبيعِها وخَريفِها، وزيادَةِ ما حُصِرَ مِن عِدّةِ سُكّانِها".

(٥٨) المصدرُ نَفسُهُ، ١/٧٤.

(٥٩) سورة سبأ، الآية: ١٥.

(٦٠) الخطيب البَغدَادي. تاريخ بَغدَاد، ١/٨٠.

(٦١) المصدرُ نَفسُهُ، ١/١٣١.

(٦٢) الأطرار: جمع طُر، وهو شَفيُر النهر والوادي، وطرَف كُلّ شيء وَحَرفِهِ. المَصدَرُ نَفسُهُ، هامش (٣)، ص ١٣١.

مَصَادِر البحثِ

- ابـن جُبَـير، أبو الحسَـن مُحَمَّـد بن أحمـد (ت: ٦١٤هـــ/ ١٢١٧ م). رِحلـة ابن جُبَير، المُسَـمَّاة: تَذكِرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، حَرَرَّها وقَدَّمَ لهـا: علي أحمد كنعان، دار السّـويدي للدراسـات والنشر والتوزيع/ أبو ظبي، و: المُؤَسسـة العَرَبيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، (بيروت، ٢١م).
- ابـن حزم الأندلـسيّ، أبو مُحَمَّد عـليّ بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦/ ١٦٧م)، رسائل ابن حزم، نَشَرها د. إحسان عباس، دار الثّقافة، (بيروت، د. ت).
- ابن حوقل النّصيبيني، أبو القاسـم مُحَمَّد بن علي (ت: ٣٦٧هـــ/ ٩٧٧ م)، صـورة الأرض، القسـم الأول، بِاعتنـاء: كرامـرز، مطبعـة بريـل، (ليدن، ١٩٣٨م).
- ابن الخَطفي، عُمارَة بن عقيل بن جَرير بن عَطية، المُلَقَـب بـ:" الخَطفـي" (ت: ٣٢٩ هـ/ ٩٤١م)، - ديوان عُمـارَة بن عقيل، جمِع وتحقيق: شـاكر العاشور، وزارة الإعلام، ط ١، (بَغدَاد، ١٩٧٣م).
- ابن خلـكان، أبو العباس شـمس الدّين أحمد بن مُحَمَّـد بـن أبي بكـر (ت: ٦٨١ هـــ/ ١٢٨٢م)، وفيـات الأعيـان وأنباء أبنـاء الزّمـان، تحقيق د. إحسـان عبـاس، دار صـادر، ط ٦، (بـيروت، ١٤٣٤ه/ ٢١٣ م).
- ابـن رُسـته، أبو عـلي أحمد بـن عُمـر، (ت نحو: ٣هـ/ ٩١٢م)، الأعلاق النّفيسـة، وَضَعَ حَواشـيهِ خليل المَنصُور، دار الكتب العِلميّة، ط ١، (بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
- ابن الفَقيهِ الهَمَذانيّ، أبو بكر أحمد بن مُحَمَّد (ت: ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م)،
- بَغـدَاد مَدينَة السّـلام، تحقيـق أ. د. صالح أحمد العلي، وزارة الإعلام، (بَغدَاد، ١٩٧٧م).
- مُختصَر كتاب البُلدَان، باعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٣٢هـ/ ١٨٨٥م).
- الإِصْطَخرِي، أبو إِسـحاق إبراهيم بن مُحَمَّد، (ت: ٣٤١ هـــ/ ٩٥٢م)، مَسـالِك المَمالِك، بِاعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٢٧م).
- الحَمَويّ، شِهاب الدّين أبو عبد الله يَاقُوت بن عبد اللـه، (ت: ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)، مُعجَـم البُلدَان، مُجلد: ١، ٣، ٣، دار صادر، ط ٨، (بيروت، ٢١ م).
- الخطيب البَغدَادي، أبو بَكر أحمد بن علي بن ثابت، (ت: ٤٦٣هـــ/ ١٧١م)، تاريخ بَغـدَاد، أو: مَدينَة السّلام، ج: ١-٤، دراسـة وتحقيق: مصطفى عبد القـادر عطـا، دار الكتب العلميـة، ط ٢، (بيروت، ١٤٢٥ هـ/ ٢٤ م).
- الزُّهريّ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر، (ت بَعدَ: ٥٤٩ هـــ/ ١١٥٤م)، كتـاب الجُغرَافيّـة، اعتَنـى بتَحقيقـهِ: مُحَمَّـد حـاج صادق، المعهـد الفرنسي للدراسات الشّرقيّة، (دمشق، ١٩٦٨م).
- الغرناطي، أبو حامـد مُحَمَّد بن عبد الرّحيم، (ت: ٥٦٥هـ/١١٧م)، رِحلَة الغرناطي، المُسَمَّاة: تُحفَة الألبـاب ونُخبَة الإعجاب ورِحلة الى أوربة وآسـية، حَرَرّهـا وَقَـدَّمَ لهـا: قاسِـم وَهَب، دار السّـويدي للنـشر والتوزيع/ أبو ظبي، و: المُؤسسـة العَرَبيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، (بيروت، ٢٣م).
- المَقـدسيّ البَشَّـاري، شـمس الدّيـن أبو عبـد الله مُحَمَّـد بن أحمـد البَنَّاء، (ت: ٣٨١هـــ/ ٩٩١م)، رِحلَة المَقدِسيّ، المُسَمَّاة: أحسَن التّقاسِيم في مَعرِفَة الأقاليـم، حَرَرَّهـا وَقَدَّمَ لهـا: شـاكر لعيبي، دار السّويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي، و: المُؤَسسة العَرَبيّة للدراسات والنشر/ بيروت، ط ١، (بيروت، ٢٣م).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بـن وَهَب بـن واضِـح، (ت: ٢٨٤هـــ/ ٨٩٧ م)، البُلدَان، وَضَعَ حَواشِـيهِ: مُحَمَّد أمين ضَنّاوي، دار الكُتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤٢٢ هـ/ ٢٢م).